الوجدان الثقافي في جو الأزمات

بقلم الدكتور عمر حليق

اوسع الاقلام العربية اليوم حرية في التعبير واكثرها نشاطا تلك التي يزداد عشقها للمناخ الثوري والرائج من قيمه وشعائره . والواقع انك حين تمعن الروية في هذه الظاهرة في الثقافة العربيه المعاصرة يذهلك مدى التناقض في « علمانية » الانتاج والاجتهاد يصاحبها « صوفية » عتيقة في السلوك والنزعات ، في بعث قومي المفروض فيه انه مصر على التحرر من اعباء الماضي .

فالايمان بالعمل الثوري يتتلمذ في قصور ملحوظ على بعض المستجد من مناهج البحث والتعبير في علوم النفس والسياسة والاقتصاد، ولكنه ينزع في الوقت نفسه ومن حيث لا يدري الى شطحات صوفية عتيقة كتلك التي حددها « ابن عطاء الله » في قوله « انت حر لما انت عنه آيس وعبد لما انت له طامع » او تلك التي صاغها « احمد بن خضروية » مصرا على ان « في الحرية تمام العبودية وفي تحقيق العبودية تمام الحرية » . فليس من العسير ان تستنتج في مراقبتك للمناخ الثقافي العربي المعاصر المدى الذي تلاشت فيه القواعد الاخلاقية للنشاط الفكري وتمارت في اغطية رقيقة من « حتمية الالتزام » فنصبت من عقولها وتحصيلها مرفقا عاما لشوكة السيف والنظم والشعارات واصرار سلطانها « بما فيه سلطان الرأي العام» على ان يحتكر أمورا هي في الاصل من اختصاص الوجدان الثقافي وحريته في ان لايلتزم بعجلة الطواريء وجو الازمات لينمكن من ان يرى بعمق البصيرة ودقة التمحيص وشدة الاحساس العقلي ورفعة العلم ، ماوراء الطواريء وشعائرها من النفع او الاذى لمستقبل الكرامات والمصالح القومية . وذلك لان في توطيد القواعد الاخلاقية للوجدان الثقافي بعيدا عن معايير التقوى او الشرك العقائدي في جو الازمات ومناخها الثوري توطيدا كذلك للروافع العملية الاصيلة في مجرى التطور للجماعة الكبرى . فتبعة المسؤولية على الوجدان الثقافي ابلغ وادق من الرياضات السياسية في اسمى معالمها .

فاكثر المساهمة الفكرية في قضايا الساعة العربية مقصورة كما قال الامام علي بن أبي طالب ، على « المتعلم في سبيل النجاة يجري وراء النعيق » لا على العالم الرباني الذي شرح مسؤوليته الامام الغزالي فقال « الانسان انسان بما هو شريف من اجله » فالخاصية التي تميزه عن البهائم هي في رفعة العلم للذين لا يريدون علوا او فسادا في الارض ولا يغالون الا في انكارهم للباطل .

وما دام هذا المقال موجها في الاصل الى النافرين من اثقال الماضي العربي فان قضية الوجدان الثقافي في مناخ الثورات لا يستعصى عليها ان تستعرض بعض حصيلة الفكر الاوروبي الذي هو على ما يبدو في حاضر الاستعداد والتفكير العربي اكثر قبولا واسرع هضما من نظائرها الكثيرة والجميلة في قديم التراث العربي . والواقع ان قسطا كبيرا من اسباب عسر الهضم في انتاج الثقافة العربية اليوم — بين عروبة اللغة والمعالم واعجمية الوحي والمناهج — لن تزول حتى يتسع التحصيل فيشمل جذور المنهل للفكر المقتبس ومراحل تطوره في رصانة العقل المخضرم لا في حماس التلميذ المكتشف لخاطرة او خواطر فكرية معلبة شعاب موادها كثيرة العقد مشحونة بالمتناقضات تستوجب على الوجدان الثقافي انكاره للغث منها كلما غالى الاخرون في عبادتهم لبعض معالم الحسن فيها وهو قليل وتافه كما هو الان في اكثر مناهل الفكر السياسي العربي.

المناخ الثوري

حين تجرد دعوات الاصلاح الثوري من منمق البيان والبديع ومن الشطحات السيكولوجية والاقتصادية والقومية ومن سفسطة التحليل والاستنتاج فانك ستجد الاصول في نزعة فطرية لا يستعصى ادراكها على ابسط النفوس — نزعة الحرية ضد الطغيان . وكلما تلاشت قواعد الحرية او تعرضت الى الاذى كلما استدعت الحاجة الوان العنف في سبيل توطيدها . فالثورة في مفهومها الحقيقي نقطة البدء لا هدف التطور تعيد الى الحرية قواعدها الطبيعية ليتراجع العنف ويزول ويمضي الفرد والمجتمع على ما فطر عليه من انطلاق اللسان والفؤاد .

ولقد اتسع معنى الطغيان في الاجتهاد الثوري الحديث — في الثورة الفرنسية او الروسية مثلا ومدارسها المعاصرة — فادرج في المفهوم التقليدي للثورات خواطر قديمة في تراث الفكر السياسي كالحاجة الى المساواة في الحقوق والعدالة في الارزاق والفرص ، اسبغ الاجتهاد الثوري عليها طابع الحتمية والحاح الطواريء ونصب من نفسه عليها رائدا ومديرا . ومن هذه السعة في تفسير الطغيان تولدت مبررات جديدة لتبرير المضي في المناخ الثوري فوق ماهو حد له في مجرى التطور الحضري ، بحيث تعطلت اقساط بليغة من الحقوق للكثرة من الناس مما لم يكن في حسبانهم عندما بايعوا التفكير والاجراء الثوري على مصالح الامة .

ففي الثورة الفرنسية الكبرى مثلا تطورت حرية العنف في مكافحة الطغيان فانحرفت ، عفوا او عن تصميم، من شعارات الحرية والمساواة والاخوة الى عنف وبطش اثيم متذرعا باطار عقائدي جديد معالمه في اجتهاد برر المضي في المناخ الثوري باسم « السيادة القومية » التي وفرت لديكتاتورية نابليون شعارات ثورية جديدة تبين ان اهدافها الحقيقية الاستئثار بالزعامة الفردية والتوسع الاستعماري لمجد فرنسا شرقا وشمالا وجنوبا — من موسكو الى القاهرة فالجزائر فقطاعات اخرى بلت من الاستعمار الفرنسي ماينفي شعارات الثورة الفرنسية في النص والروح .

وفي الثورة الامريكية بررت شعارات التحرر والسيادة والاتحاد ألوانا من العنف لم تكن في حساب دعاتها خصوصا وانها لم تشمل معاني اقتصادية واجتماعية واهدافا تتعمد مباشره ازالة فوارق الطبقات والمشاكل الانسانية العويصة التي كان يعانيها المجتمع الامريكي (١) . وصحيح ان طبائع العنف ضد الطغيان في الثورة الامريكية لم يدم طويلا فتركت لحرية الوجدان الثقافي عجالة في ان يستمد اصولا قويمة لدستورية الحكم وديمقراطية التشريع مما يتجانس مع طبيعة العقل والمزاج الانجلوسكسوني وغرامه بالتدرج والتطور في غير السفسطة العقائدية وفي احترام اصيل لقواعد النظام ـ ومع ذلك فان دستورية النظام لم تحل دون تشويه خطير لشعارات الثورة الامريكية بحيث تولد عن ذلك اكداس من السوء والاذى في الطبائع العتيقة للرأسمالية التقليدية .

وفي ثورة السوفييت كان الرائد الماركسي ـ اللينيني ادق تحديدا للمعول الثوري وللشعارات والاهداف في حتمية التطور وقسوة الاجراء ، بحيث اتخذ العنف لدى الدعاة والاتباع لونا من الفضيلة في مناخ ثوري شديد البطش قليل الصبر متحجر العواطف لا يحيد عن حرفية المنزل من الفية ماركس وشروح لينين وهذه الزمرة التي آل اليها السلطان في اطار عقائدي تعمد ان يعالج كل شيء ـ من اللغه والدين الى مطرق العامل وسنبلة القمح . والواقع ان تجربة السوفييت اعتبرت ان ماضي حركات التحرر من الطغيان ليس سوى سلسلة من « اليقظات » لا من « الثورات » وان هناك فرقا شاسعا بين يقظة تخاصم عهدا طائشا لتزيل شوائبه وبين ثورة محدودة المعالم مرسومة اجراءاتها وبرامجها بحيث تعتبر ان مجيء التاريخ يجب ان يتوقف بمجرد تملكها لسلطان الامور لتسجل هذه الثورة نوعا جديدا في مآرب الحياة ومصالح المجتمع . اما اقساط العنف والضرائب الانسانية الجسيمة التي صاحبت (ولا تزال) تجربة الثورة الماركسية فامر ليس ابلغ في قسوة الحكم عليه من الادانة التي سجلها حاضر العهد السوفييتي على العهد الذي سبقه حتى في هذا القليل من الحقائق التي كشف عنها في ارث ستالين وبطانته . وسواء حققت ام لم تحقق اجراءات العنف وضحاياه في الحريات والانفس في عهد ستالين رسوخ قاعدة الانطلاق للاشتراكية ، فان المناخ الثوري يستنبط عادة قيما ذرائعية تبرر الخسائر الجسيمة في الانفس والحريات على انها شر لابد منه في « معركة المصير » على المنوال الذي يزداد شيوعه في المجهود الحربي للذود عن كيان الامة . ومثل هذه القيم الذرائعية تتقمص طابعا قوميا او « روحانيا » لا يستطيع ان يجادله المنطق والوجدان من غير ان يتعرض لتهمة الشرك في الشعائر الوطنية . وكلما تمادى المناخ الثوري في هيمنته على هذا القطاع « الروحاني » في الشعائر الوطنية كلما ازداد عشق السلطان الثوري لقسوة تطبيقه برامج الدعوات ومطالبة الناس باثمان مرتفعة من التضحيات في اطول اجل ممكن للمناخ الثوري .

وعهد ستالين في تجربة الثورة السوفييتية مثل قريب على الغلو والعبث واكداس الشر والاذى على الابرياء وغيرهم في الجماعة الروسية ، استمر اكثر من ربع قرن فزرع في طبائع النظام والعقلية الثورية للاتحاد السوفييتي من الوان التآمر والبطش وعقد السلوك ماقد يبرر او لا يبرر التطور الحضري والمادي في حاضر الامة الروسية . فالفلسفة الذرائعية في الحركات الثورية ومقاييسها لعبء الاساليب في سبيل الاهداف ، مسألة فيها نظر من حيث الناحية الموضوعية للغايات والسبل ومن حيث النتائج العملية والمادية ايضا . فمعالم البعث والتقدم المادي والحضري (بما فيه اصول الحريات والكرامات) في حاضر الاتحاد السوفييتي له مايجاريه ان لم يفقه في النسب النوعية والعددية في تجارب جماعات انسانية اخرى لم تلتزم بفضيلة العنف ومناخ الثورات والبرنامج الماركسي . ففي اسكندنافيا او كندا او اليابان او المانيا الاتحادية مضى التطور متينا قويما يصون الشعائر القومية ويحقق مستوى رفيعا في شتى المدارج والمنازل في اصول معقولة ومقبولة من الحريات وفي امكانيات اولية تقل في الموارد الطبيعية والبشرية عما تحظى به القارة السوفييتية ومناطق النفوذ التي آلت اليها ـ هذا فضلا عن ان مثالية التحرر والتضامن في الشيوعية الدولية كما روجت لها شعارات الثورة السوفييتية قد تجاوزت سفسطة « الانحراف » في شعوبية « تروتسكي » والاختلاف الفقهي على المذهب الماركسي بين « تيتو » و « ماوتسونغ » والوطن الام في المعبد الروسي ، واصبحت صراعا انتهازيا سافرا لاينقص ولا يزيد عن هذا النمط المألوف في تفاوت المصالح والمآرب بين الامم والحكام مما ينفي على الطبائع الثورية هراء التعالي في شعائرها ووسائلها وغاياتها . فاذا كان بيت القصيد في النزعة الذرائعية لمن آمنوا بافضلية المناخ الثوري على غيره من خطط الاصلاح والنمو هو تقصير الابعاد في بطء التطور ، فان حكم التاريخ وحقائق الحياة وجوهر السلوك السياسي يجرد المناخ الثوري من اكثر مزاياه ، بحيث يستدرك الوجدان الثقافي صخور التناقض بين ما في الضمير الثوري من جميل القصد وخالص النوايا وبين طبائع الحكم والسلطان حين تتوفر له المسؤولية في مناخ ثوري مزمن . وفي العلوم الاجتماعية مدرسة بكرت في تخصصها لمعالجة فقدان المنطق والرشاد في سلوك الحاكم والمحكوم ازاء الحركات السياسية وقيمها وشعاراتها واساليبها وغاياتها ـ تخصص يتجاوز حكمة الفلاسفة وخواطر الادباء والوعاظ . فاجتهد المفكر الايطالي « فيلفريدو باريتو » (٢) مثلا في تحديد بعض المعالم والمسببات للتناقض السافر في المجتمع الواحد بين صواب القيم وغباوة السلوك الجماعي او بين تفاهة القيم وفقدان الرشاد والمنطق في عبادة الناس لها . والواقع ان المدرسة الاجتماعية في العلوم السياسية جادة اليوم في الاستقصاء (ومن ثم التحكم) في ظاهرتين خطيرتين في مجرى التطور الانساني في هذه الحقبة الراهنة من القرن العشرين (٣) .

احداهما : الخوف من ضياع بعض المقومات الاصيلة لشخصية الفرد والمعالم المميزة لكرامة النفس والعقل

---

(١) دافع « جون ادامس » احد ائمة الفكر السياسي المعاصر للثورة الامريكية عن صلاح الوسائل والغايات في تلك الثورة لما اتهم الفرنسيين في « الانحراف » عن الفضائل الثورية . راجع
J. ADAMS : Defence of the Constitution of the U.S.A.

(٢) باريتو من رواد النزعة العلمية في الدراسة الاجتماعية للسلوك السياسي .
PARETO : Trattata di Sociologica Generale.

(٣) مجموعة قيمة ساهم فيها بعض ائمة الفكر الغربي المعاصر .
Prospect of a troubled decade a symposium - Princeton University.

والوجدان في ضجيج المواصلات الفكرية وسلطة اجهزة الاعلام والتوجيه على حرية الاختيار والاستنتاج حتى لاشد الناس استقلالا في الرأي والتحصيل ، وهذه الظاهرة على اسوأها في مناخ الثورات وفي الاجواء الثقافية التي لاتتسع فيها شتى موارد الغذاء الفكري .

وثانيهما : نتيجة مرتقبة من الظاهرة الاولى من حيث ان جوهر التوتر بين الشعوب (او بين الامة الواحدة اذا شئت) هو في تفاوت جهد الاقوياء لتحقيق لون موحد من النظم يدعى كل طرف فيه ان مآل التوحيد هو احترام الكرامة الفردية وصيانتها لا لاهل الدار فحسب بل للبشرية باسرها . ويمكنك ان تفسر صراع العمالقة من الدول في حرب المواصلات الفكرية وفي سباق التسلح وفي الوان التآمر والاغراء والوعد والوعيد بأن كل ذلك نتيجة مسبباتها ليست في المنطق ورفعة المقاصد والنزعات وانما في تعصب اعمى لشعارات المفروض انها متجانسة في اغراضها لخدمة البشرية ولكن تباين اساليبها يعرض الحياة البشرية باسرها الى الفناء . وكما ان من العباطة ان يتقبل الوجدان العقلي ويقظة الضمير هذه الشعارات العقائدية ــ شيوعية كانت أم رأسمالية ــ على انها مجردة من الانانية ومن اخطاء التدبير والاستنتاج وذيول ذلك على السلام وعلى المصالح للاخرين ، فان من العباطة ايضا ان يتقبل المرء فوضى الشعارات والقيم و « المخططات » الشائعة الرواج اليوم في دنيا العرب على انها قول منزل لا يتحمل مجادلة العقل والوجدان لجوهره وسلوكه واهدافه ــ خصوصا وان اكثر تلك البضاعة العقائدية والتدبيرية مزيج عجيب من محاصيل مستوردة شذر مذر لايضبطها اجتهاد الفكر المخضرم وانما اوكار التآمر وسطحية التتلمذ في مناخ ثوري يعتقد اربابه ان اجتهادهم وتقواهم الوطنية هي منتهى الابداع .

بين المبدأ والتطبيق

لدانتي اليجيري ــ صاحب الكوميديا الالهية ــ بحث طويل في ثلاثة مجلدات (٤) عن عقد السلوك السياسي وضعها باللغة اللاتينية قبل ان ينحت لقومه في «الكوميديا» اصول اللغة الايطالية الحديثة كعامل فعال لمولد البعث القومي الايطالي . وعلى قدم هذا الانتاج لدانتي فانه صالح للمراجعة في معرض الحديث عن مسؤولية الوجدان الثقافي ازاء الرائج من الشعارات وخصوصا تلك التي تتقمص عفوا او للتزلف ، اثوابا قومية مطهرة فتفترض من الافئدة حتمية الالتزام لما استنبطته من قيم نهائية للصالح العام . ويرى « دانتي » ان هناك :

اولا : غرام شديد في اوكار القوة والسلطان وفي الحركات السياسية بتصنيف الفكر والزندقة والطاعة والولاء في الامور القومية في سراط لا يستقيم الا اذا دار في اطار الشعارات والتدابير التي تعكس اجتهاد تلك الاوكار والحركات ومصالحها بحيث لاتصفح عن اي اجتهاد اخر مهما جند من المنطق ومن الحقائق ليثبت حريته في الجدل .

ثانيا : تتعمد مصادر القوة والحركات السياسية ان تصوغ شعاراتها وتدابيرها بطابع رسمي يتقمص كل شيء في الصالح العام في لون من « الروحانية » القومية ميتافيزقية النداء ، لا يحددها العلم والعقل والمنطق وان استوعبها الشعور واستمزجها القلب واستطاب اللسان ترديدها والتغني بها . فاذا سلطت عليها الوجدان الثقافي المجرد لوجدت أن قسطا بالغا من ذلك الطابع الرسمي للشعارات والقيم يعوزه اثبات فعلي ليستأثر بالمسؤولية القومية ويبرر تصنيفه القطعي لمعالم التقوى او الشرك في السلوك القومي .

ثالثا : القضية هنا ليست في تحايل الشعارات والقيم المرسومة للمجتمع على صلابة المنطق ودقة المسؤولية الاخلاقية للوجدان والعقل . فمثل هذا التحايل لايصدر الا عن شعوذة سافرة ندر ان تجد سبيلها الى «روحانية » القيم والاهداف . فالقيم التي يعم قبولها ترتفع عن الشعوذة السافرة .

القضية عند دانتي هي في قصور المنطق عن تحديد الشطط في الطفرة الروحانية للشعارات والتدابير السياسية التي يعم قبولها في حقبة ما من تاريخ الجماعة الانسانية . فالمنطق والوجدان الثقافي يبحث عن « المعنى الحقيقي » لا الرسمي للشعارات والقيم السياسية وعن صلاحها للتجانس مع روافع الكرامة الانسانية والعوامل الازلية الاخرى في الحياة البشرية التي لا تتأثر كثيرا بالحاجات الطارئة في حياة الناس من عهد سياسي طائش او نكسة اقتصادية مزمنة او تفاوت او بطء في التطور والنمو .

فالمعنى « الرسمي » للقيم والشعارات التي يشيع قبولها يؤدي عادة ــ في بليغ اللفظ ورائع التعبير البياني ــ لونا من الشمول والكمال يسهل على الناس استملاحه لانه يتعمد الاحاطة والتعميم بابسط التفسيرات لمشاكل الامة في حقبة ما من تاريخ صراعها مع الاحداث . ومن اخطاء التعميم والتبسيط انها تنشر من حيث لاتدري ستارا كثيفا

(٤) DANTI ALIGIERI : di Monarchia

شعر

من منشورات دار الاداب

وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب

بيروت ــ ص.ب ٤١٢٣

من الغموض المنطقي في خواطر تعيش على عي الاستيعاب والفهم لجذور القلق واسباب النكسة والتخلف . ومن هذا العي تتولد في المشاعر نزعة لا يهمها ان تتكلف بتشخيص الداء بقدر ماترغب في سرعة الحلول وزوال العلل فتفسد على الوجدان الثقافي لحفظة العلم واهل التحصيل والنضوج ومن يتوفر لهم صفاء الفكر وسعة مصادره ، مسعاهم في الوصول الى رضوان العقل عن الغث والسمين في تلك النزعات وفي الشعارات والقيم والبرامج . وفي مثل هذا المسعى لا يجد الوجدان الثقافي مفرا له للوصول الى المعنى « الحقيقي » للقيم والشعارات الا بتجريدها من حواشي البديع والبلاغة والبيان ومن الروحانية الرخيصة التي تتسرب عادة الى الرائج من الفكر السياسي حين يتخذ طابع الالتزام بين الناس اما بشوكة السيف او ببأس الحركات السياسية وفي المناخ الثوري على وجه التخصيص. ففي كل حركة سياسية قسط كبير من منمق الكلام ومن بليغ اللفظ ومن جمال النداءات اكثرها اجوف وان اتخذ طابع الجد وتملك مشاعر الجمهور . فالغموض والتعميم في البرامج السياسية قد تكون لغاية في نفس اقطاب الحركة يسترون بها مآرب اخرى غير الحلول التي يترقبها الجمهور في براءة وسذاجة مشاعره ، او انها مجرد عجز اصيل في مقدرة الحركة السياسية واقطابها عن الاستيعاب الحقيقي لجوهر المصلحة القومية . ففي كلا الحالتين سيظل الغموض ظاهرة مزعجة في برامج الدعوات يجادله الوجدان الثقافي وان تخاصم مع روحانية الدعوات وعشق الجمهور لها . فالفكر السياسي الاصيل بضاعة ثقيلة حظ المحتكرين للعمل السياسي فيها تافه كحصاد الهشيم فيه بعض الجذور وقليل من المحصول ولكن اكثره عشب يابس لا يصلح الا للبهائم .

ووجه الاشكال في هذا الغموض الذي يكتنف اخطاء التعميم في الدعوات السياسية وشعاراتها انه يسبغ على الحركات السياسية ورجالها خطورة بالغة حين يؤول اليهم السلطان . فدقة التفسير وسطوة الاجراء لتنفيذ برامج الدعوة السياسية لن تخضع لمسؤولية احد سوى أئمة الحركة وبطانتهم . وفي هذا حتما بذور الحكم المطلق مهما استتر باثواب مثالية وقومية مطهرة .

فحين تتملك الحركة السياسية سلطان الامور وخصوصا في المناخ الثوري لاتعبأ اثر ذلك بتقديم الادلة والشواهد على صلاح شعاراتها واجراءاتها بقدر ما تحرص على ان تتوطد دعائم سلطانها . فاذا لم يبادر الوجدان الثقافي في ممارسة حريته لوزن الدعوات السياسية بميزان النضوج والحكمة والتجارب الانسانية فانه سيفقد مسؤوليته في الحياة القومية فيتراجع في خوف او استحياء الى المركز الثانوي الذي تصر الحركات السياسية العاملة في جو الازمات على ان تحصره فيه .

والواقع أن الوجدان الثقافي هو اصلا منبع الوحي للحركات السياسية العاملة ، منه تستمد السطحية او العمق في خدمة الصالح العام . فحفظة الثقافة هم همزة الوصل بين معقد التراث في تجارب الامم وحضاراتها وبين شناعة الاوضاع وجمال الاصلاح في اماني القوم . فاذا استطاب لرجل السياسة او لحامل السلاح ان يجند حصيلة الوجدان الثقافي في تدبيره للعمل القومي فان جهد السياسيين والعسكريين سيظل دوما في حاجة الى حرية الوجدان الثقافي ليمعن في تحصيله وتغذيته لحاجات الامة والا فان مصير الاشياء سيظل مبتورا يرتجل الحلول حين يفنى الزاد القليل للسياسيين والعسكريين في قطاعات من مشاكل الحياة تصر على ان تكون فوق مدارك السياسة او السيف او الشعوذة العقائدية . ومن العباطة ان يتلمس العقل السياسي او العسكري الزاد الفكري بتجنيد العقول والضمائر حتى ولو كان الطابع المثالي والروحاني للحركة السياسية في منتهى الروعة القومية . فالتجنيد يفترض الطاعة للسلطان او للشعائر او للقيم . والطاعة امر لايغره الوجدان الثقافي في أي اطار مرسوم والا افسد على العقل ما فطر عليه من حرية الاستقصاء وترفع الالتزام عن غير ما فيه الحق . والحق مسألة نسبية تتأرجح في نظرتها للاشياء تبعا لعقد الساوك في الفرد والجماعة وهي عقد لا حصر لها . فالاطار الذي يحدد مشاكل الامة في برنامج او « مخطط » عقائدي او اجرائي اطار سخيف لانه ينفي عن الطبيعة البشرية تشعب عقدها ودلال مطلبها والوان التطور المفاجيء والمتلاحق الذي يلم بحاجاتها وامانيها . فالعامل والمزارع وقطب السياسة وشتى فئات المجتمع التي خلقت الثورة الفرنسية الكبرى ارتكبت جميعها من أوزار الشرك القومي والانساني مارمى بشعارات الثورة الفرنسية ـ حرية ومساواة واخاء ـ الى الجحيم قبل ان يجف مداد الوجدان الثقافي الذي كان عاملا رئيسيا في مولد الثورة . فالمناخ الثوري العنيف الذي كفر بالوجدان الثقافي بعد ان جنى حصاده وارغمه على حتمية الالتزام لم يلبث طويلا قبل ان يجري في ركاب ديكتاتورية « نابليون » ومولد الاستعمار الفرنسي باسم شعار جديد استنبطه السلطان ـ شعار « السيادة القومية » ـ بعيدا عن حرية الوجدان الثقافي في أن يجادله مدى التناقض السافر بين شعارات الثورة الفرنسية وبين طبائع الاستعباد الجديد للشعار المستحدث وسطوته على رقاب الفرنسيين انفسهم وعلى رقاب الابرياء في اوروبا والشرق الاوسط وافريقيا الذين خضعوا لموجة الاستعمار الفرنسي في اعقاب الثورة الفرنسية .

وفي الاتحاد السوفييتي والوان المثالية التي تقمصت ثورته ، مثل قريب على الثمن الباهظ الذي يأتي في اعقاب التجنيد للوجدان والاخلاق في اطار الصالح العام . فالحقائق القليلة التي اختار عهد خروتشيف ان يكشف فظائعها كثمن لحتمية الالتزام في عهد ستالين دليل واضح على خطورة الغموض في الشعارات الثورية وحرية الحركة وائمتها في تفسيرها وتطبيقها بعيدا عن رقابة الوجدان الثقافي الطليق . فالثورة السوفييتية تدين اليوم نفسها في فقدان الحق الاخلاقي للوجدان الثقافي بين طائفة كبرى واطأت ستالين مسخرة او مخيرة وهي عالمة انه يرتكب من الزندقة ما ليس فيه نص صريح حتى في شعارات ماركس ولينين التي تقبلها الناس هناك على انها اجمل الاماني واصلح السبل .

ومن الناس من يقول في معرض التبرير لمثل هذا الانحراف في المناخ الثوري ـ الفرنسي والروسي وغيره ـ ان مقياس الامور بنتائجها في « حتمية المصير » للقيم والمصالح القومية المشتركة ، وان اي ثمن مهما غلا رخيص في ميزان الصالح العام . ومثل هذا القول يدخل في عداد قيم ذرائعية تؤمن بميكيافيلية التدبير والتنفيذ. وفي المناخ العربي اليوم على ما يبدو رواج وتسليم بين اكثر المثقفين العرب بهذا اللون في السلوك والتفكير. وهنا مرة اخرى تضر حقائق العلم والوجدان الثقافي على المناقشة

والاقناع ـ اذا امكن ـ في عي هذا التفكير وشر هـذا السلوك .

السلوك الميكيافيلي

فالتفكير الميكيافيلي في اساسه دعوة الى الحكـم المطلق ـ وهو شر ألوان الحكم واشنع مايعترض الحيـاة القومية والانسانية من اجواء عابرة . فاذا تعمد « دانتي » معالجة الاصول الوحدانية للسلوك السياسي فان مواطنه « ميكيافيلي » كان كما هـو معـروف مغـرما بالاسس الذرائعية الصرفة لمصلحة الحكم المطلق باسم الصالح العام. ومن البليغ ان نستذكر بان تراث ميكيافيلي كان في جملته اجتهاد مثقف كان يؤمن بالحاجة الى التوضيب الفكـري والاجرائي للوحدة الايطالية في حقبة كان حاضر الشعب الايطالي فيها اشبه بحاضر العرب ـ مجموعة من الدول والدويلات تولدت من انهيار الامبراطورية الرومانيـة المقدسة (فيها من اوجه القيـاس بالخلافة العثمانية على ديار العرب حد كبير) . ففي الجنوب الايطالي تخـلف مؤلم (اشبه بحاضر جزيرة العرب) تتحكم فيه اقطاعيات مستطيعة بغيرها . وفي المناطق الوسطى قطاعات بلغت قسطا من التطور ولكنها عجزت عن ان تتحكم في طاقاتهـا للصالح العام لاسباب جذورها في اكداس من سيء الميراث. وفي الشمال الايطالي (المقارن الى حد ما بحاضر المغرب العربي) قطاعات لا تزال تعيش فيها فوضى الولاء للنظـم القديمة ولموجات التطور والتحرر في غير قواعد ثقافيـة تستمد الوحي من الميزات التي تتوفر في معاقل قوميـة اخرى كتلك التي نمت في ظل لون من الحكم الذاتي والبعث الحضري القومي الطابع في مناطق كالبندقية وجنـوا وفلورنسة . وفي كل هذه المناطق دلال وتباين في انظمـة الحكم وفي الموارد ـ بعضها معطل والبعض الاخر رهين بغير مصالح اهله .

وكـان مـن الطبيعي ان ينـزع الكيـان القومي في ايطاليا التي عاصرها ميكيافيلي الى مركزية معقولة خارج النزعة الدينية والعاطفية التي تبقت للبابويـة في انانيـة وجهل وفشل عجز عن استيعاب الروافع الاصيلة لمقومات الجماعة الايطالية (وهذا اشبه الى حد بعيد « بالمركزية » الروحانية للوحدة الاسلاميـة او العربيـة التي آلت الى جامعة الدول العربية) فلم تتجاوز سوى قالب شـكلي أجوف لمزيج عتيق من النزعات لقوم عانـوا مـن فوضى حياتهم السياسية الطويلة عقدا لا ينفع في التغلب عليها الا تجارب جديدة نصب ميكيافيلي نفسه عقلا نابضا لها .

مراحل التوضيب السياسي

فقد اصر ميكيافيلي على توضيب السلوك السياسي في ثلاث مراحل **اولها** تمحيص ذرائعي دقيق للحقائـق الراهنة في الوضع الايطالي العام وما يحيط به من عوامل داخلية وخارجية . **وثانيها** ربـط هذه الحقائق بنيـادة السلطان الحازم . **وثالثهـا** السـعي للتنبؤ بمستقبـل النتائج والترويج لحتميتها على ضوء الخطوتين السابقتين. فاذا لمسنا تشابها كاملا بين الميكيافيلية والماركسية والنازية او الفاشية في مثل هذا التوضيب للسلوك السياسي فما ذلك الا لان طبيعة هذا اللون من القيم والدعوات متحد في الاساليب وان تباين في سفسطة الشعارات .

وفي حين ان « دانتي » كان يصر على تلمس المعنى الحقيقي للدعوات مجردة من منمق الكلام وشعوذة التدبير المستترة في ثنايا الغموض والتعميم التي تصاغ به عـادة شعارات الدعوات وبرامجها ، كان مواطنه ميكيافيلي مغرما بتوطيد الحذق والدهاء للسلطان في تطبيق ما استنبطـه من « حتمية المصير » ، لا يعبأ بهـراء المعاني الروحانيـة للشعارات والقيم الا بالقدر الذي تساهم به في توفير القوة للسلطان في مراحل حكمه . فالفصل الاخير من كتـاب « الامير » دعوة سافرة للبحث عن بطل ينفذ في الاسلوب الذرائعي بعث الكيان الايطالي عزيزا مهاب الجناح . وليس في كتابات ميكيافيلي غموض او مواراة في تحديد هـذه الدعوة وتسخير معاول القوة للسلطان في تنفيذها ـ سواء في مقال ميكيافيلي المسهب عـن « فن الحـرب » او في اطروحته عن تراث المفكر الروماني « ليفي » او في مجلده عن « تاريخ فلورنسة ». ومن ثم فان تراث ميكيافيلي على تفاهته بالقياس الى رفعة التحصيل والعمق عند « دانتي » كان اقرب الى اذهان العاملين في السياسـة في منـاخ الثورات والازمات .

ويقيني ان قسطا واسعا من الدعوات والتدابير في حاضر الفكر والسلوك السياسي العربي يتخذ الميكيافيلية قاسما مشتركا أعظم في الاجتهـاد السياسي والقومـي واهدافهما لخلق معنى جديد للكيان العربي . ومن ثم فان حظ الوجدان الثقافي في مجادلة مثل هـذا الاجتهـاد وتدابيره مقيد باعتبارات يتراجع الوجدان امامها مستحيا والا اصطدم ـ كما قال دانتي ـ مع روحانية الغمـوض والابهام في الشعارات الرائجة ، ناهيك بقسوة الحكم على ما في اللسان وما في الضمير من مناخ ثوري لا يحب ان يجادله العقل والمنطق . والواقع انك اذا تعمدت تجريـد الدعوات السياسية والعقائدية في دنيا العرب اليوم مـن الاغطية الرقيقة التي « عربت » بها المستورد والمقتبس من تحصيل التجارب العقائدية والثورية الاخرى ـ ماركسية اشتراكية او فاشية قومية ـ فانك مستطيع ان تتبع في كثير من السهولة تسلسـل النباهـة او العي في فوضى السلوك العربي في العقائد والتدابير ـ حتى الميكيافيليـة السافرة منها . فعن ميكيافيلي تفرعت مدارس في الفكر والاجراء تمكن بعضهـا مـن ان يلعب ادوارا خطـيرة في التاريخ الحديث للانسانية ـ ولكن اكثر تلك الادوار آلت الى الوان من المآسي عاد اكثرها بالاذى على الجماعة القومية التي تعرضت له مباشرة . فالرجل (ميكيافيلي) لم يحـاول مطلقا المواراة في تغطية المعنى الحقيقي لجوهر العمـل السياسي كما تعمدت ذلك بعض مدارسه الفكرية اللاحقة (ماركسية او فاشية او بين بين) . فقد حدد ميكيافيلي حقل العمل السياسي على انه صراع بين ذوي الاطمـاع في سبيل الاستئثار بالسلطان، وبذا محا اي طابع روحاني او مثالي او اخلاقي للسياسة واهلها . ولكن ميكيافيلي في الوقت نفسه أصر على توكيد النفـع العملي في مثل هـذا الصراع لمن يتوفر له حذق الادراك لبعض نقـاط الضعف والقوة في طبيعـة الجماعـة الانسانيـة . ففي صراع السياسيين على الاستئثار بالسلطان لا مفر لهم من الالتفات الى العناصر القائمة في أي وضع وزمان ، عناصر قد تمتلك شوكة السيف او المال وعناصر كالجماهير قد لا تمتلك أي شيء سوى بلاهتها في فهم الغث والسمين في السلـوك السياسي، مما يستدعي تخديرها بكؤوس من «الروحانيات» واضعف العناصر التي لا تحظى بانتباه السياسة الميكيافيلية (رغم ان النصر لتلك العناصر في المنتهى ابدا) هي الفئـة

ـ التتمة على الصفحـة ٥٢ ـ

الوجدان الثقافي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

القليلة التي لا تملك سوى وجدانها الثقافي والمقدرة على سلامة التفكير واستطلاع الشر او الخير في تطور السلوك السياسي في نضوج العقل والتجارب وعبر الايام وعظة التواريخ . فالمسعى السياسي لتملك زمام الامور في التجربة الميكيافيلية لا يعبأ بتلك الفئة القليلة الا بالقدر الذي تعينه في صراعه على الاستئثار بالسلطان . وتلك الفئة ستظل في حيرة من امرها ، فهي اما تنساق في طواعية او اكراه تمجد السلطان وتخدم مآربه ، او تصمت على مضض حاملة اعباء الفؤاد والضمير ، او انها تجهر بالحق في شتى المعاول الدقيقة التي تتوفر للعقل حين يصمم على الانطلاق حتى لو استدعت نقمة « الامير » التي يبررها ميكيافيلي في غير تردد او احتساب . ولقد نشأ ميكيافيلي في مستهل عصر التحقيق العلمي وتطعم بموجاته التي ساهم فيها رواد اصيلون امثال «دافينشي» في الفنون و « كوبرنيكوس » في الفلكيات و « لوثر » في اللاهوت وغيرهم ، ورغم سيادة هذه الموجة العلمية في اوساط المثقفين الرفيعة انئذ فانها عجزت عن ان تتجاوز دورها التكميلي الثانوي للتراث اليوناني واللاتيني الذي كان في جذوره تراث ديمقراطي في طابعه ، انشائي في روافعه ، ومنطقي في تسلسله ـ وكل هذه صفات لا غنى عنها في تبين الشطط او الصواب في « حتمية » الاشياء ومصيرها ـ خصوصا وان موجة التحقيق العلمي انئذ ـ كما هي اليوم ايضا في عصر الذرة وغزو الفضاء ـ كانت لا تلم الا بالنزر اليسير من حقائق الحياة الكونية واهلها.

الحيوان السياسي ! ..

فالقيم الميكيافيلية تعالج الفرد لا من حيث «انسانيته» التي اولاها التراث الاغريقي بصفة خاصة وزنها من الاحترام والخطورة. وانما كحيوان سياسي عند ميكيافيلي وحيوان اقتصادي عند ماركس . وحيوان خليط من الاقتصاد والسياسة « والقومية » كما عند اكثر شطحات الفكر السياسي اليوم في دنيا العرب . فالقيم الميكيافيلية تنطوي على تصنيف قطعي لنوعين من الجماعة البشرية . **اولهما** وابهاهما هذه القلة المختارة التي منها مادة «الامير» **وثانيهما** واغباهما هذه الغالبة الساحقة من الناس التي يجب ان تأتمر بمشيئة الامير وبطانته ـ راع ورعية في أبسط تفسير لذلك مهما صاحبه من منمق الشعارات . والنوع الأول في النظرة الميكيافيلية للاشياء لا يقتصر على من في يدهم زمام السلطان الحازم موروثا او مغتصبا ، وانما يشمل اولئك الذين يصبون اليه خصوصا اذا آنسوا في انفسهم مقدرة على الوصول اليه بالقوة (في معناها المادي وبغيره) او بالتآمر وبشتى الوان الصراع بين الساسة على الاستئثار بالسلطان . اما النوع الثاني ـ الرعية ـ فالميكيافيليون لا يبخلون عليها في الضمير وفي العلانية بأحقر النعوت وان استساغوا تمجيد نضالها في معرض الدعوات وشعائرها وقيمها ـ على نحو ما ذكرنا به «دانتي» في تفرقته بين الصبغة الرسمية للشعارات والقيم وبين غموض المعنى الحقيقي للسلوك السياسي في ضمير صاحب السلطان او الطامع فيه . قال ميكيافيلي عن خصائص الرعية انها « سلبية في الوعي السياسي لا تندفع الا اذا اثار الراعي سذاجة ادراكها للاشياء اذا داهمتها الاحداث . وكل ما تصبو اليه (الرعية) هو حد بسيط من الطمأنينة او الوعد بها في أبسط المدارج او ابهاها . فمشكلة الراعي ازاء الرعية لا تتجاوز الا يقظة جزئية تراقب كبرياء المثقفين وطموح بعضهم الى حذلقة الجدل او النشاط ... فالرعية في أغلبيتها الساحقة ناكرة للجميل لا يستقيم تفكيرها بل يعتريه الخوف ويهيمن عليه النفاق وينزع الى الانتفاع، فاذا اشبع الامير بشيء من الدهاء عقدها النفسية فانها تعلن له الولاء والحب ولكن اذا داهمه الخطر ترددت الرعية في تعزيز القول بالعمل .... فالرعية لا تعرف اين صالحها وما اكثر ما تسيء الى نفسها من حيث لا تدري.. وليس كالحزم عند الامير معول لتقويم احوال الرعية ، فاذا صاحب الحزم شيء من الدهاء فليس أسهل على الامير من امتلاك الناس قلبا وقالبا ـ وكما قال « فرجيل » ـ ان في فوضى سلوكهم (الرعية) مجالا للسيد الحازم يأسر كل شيء في وعيهم ـ وهو ساذج بليه ـ فلا يتحرك فيهم سوى الاذان .

وطالما ان « الرعية » لا تفكر الا باذانها فان موطن الخطر على شطط السلطان هو في سفسطة الوجدان الثقافي لدى طائفة من الرعية ليس من السهل عليها ان تسنوعب الصالح العام من حاسية السمع فقط بل في اطار الفكر والتدقيق والبصيرة . ومن ثم فقد التفتت المدارس الميكيافيلية اللاحقة الى مثل نقاط الضعف هذه في اجتهاد امامهم .

نظرية الطبقة الحاكمة

والذين تتلمذوا على صاحب الامير جماعة تفاوتت في المنهل الثقافي وفي الزمان والمكان وفي الدوافع والاهداف من أهل اليمين او اليسار او من المركبات السياسية العجيبة التي استنبطتها الحركات السياسية في مناخ الازمات والنكسات . ومن هؤلاء ايطالي اخر

صدر حديثا

الوجودية وحكمة الشعوب

تأليف سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

دراسات عميقة عن الوجودية وعلاقاتها

بالمجتمع والشعب واثرها في الحياة عموما

دار الاداب — الثمن ١٧٥ قرشا لبنانيا

(جايتانو موسكا) ترك لعلم الاجتماع السياسي (ولاهل الحكم المطلق ايضا) بحثا دقيقا عن نظرية الحاكم والمحكوم في النظام البرلماني (٥) تمادى فيه في تعديل « امير » ميكيافيلي ليستخلص فكرة « الطبقة الحاكمة » كلحن جديد اصوله في الفية ميكيافيلي . وانتاج « موسكا » ظهر في نهاية القرن الماضي (١٨٨٣) ولكنه احتل مكانة خاصة في الثقافة السياسية التي اولدت ثورة الماركسيين في روسيا والفاشيين في ايطاليا والمانيا . وقد تميز « موسكا » بانه كان اوسع افقا من معلمه الذي حصر حياة الامة ورفاهيتها في حزم الامير ودهائه وقوته . فقد أصر « موسكا » على ان مسببات التطور هي في اولها عمل سياسي مرسوم تستوعب اصوله طبقة خاصة (في الحزب او الخلية او أي مصدر يتكافل او يتآمر على العمل السياسي) بحيث تفرض تلك الطبقة على الرعية وعلى التاريخ برنامج التطور . وطالما ان الرعية لا تتصف بغير الضعف والبلاهة ودلال الولاء فان مسؤولية العمل السياسي وعبء التطوير رهين بفئة تختار نفسها منذرا وبشيرا بين الناس وتحتكر لنفسها فريضة التوضيب والاجراء والبت على الطريقة الميكيافيلية فلا تسمح لاحد ان يجادلها فيما نصبت نفسها له من برنامج وشعار وهدف . ومن تلامذة المدرسة الميكيافيلية من أمعن في تعزيز رأي « موسكا » من ان العمل السياسي فريضة تلتزم بها الفئة المختارة دون غيرها فلا تسمح لاي اجتهاد اخر مهما استوحى نزعته من الوجدان والعقل والمنطق وروافع الاخلاق كما حفظتها الحضارة الانسانية في جميع الثقافات . ومن هؤلاء الميكيافيليين « جورج سوريل » ولكتابه « تأملات في العنف » حصيلة تجارب طويلة جمعها « سوريل » في حياة مليئة بالنشاط المباشر في حركات النقابات العمالية الفرنسية والاوروبية . وميكيافيلية « سوريل » يسارية كما ان ميكيافيلية « موسكا » يمينية ولكن كليهما يلتقي في نظرتهما الراعي والرعية التابع والمتبوع ، الطبقة الحاكمة وجمهرة الكسالى والاغبياء من الجماعة البشرية . فقد أنكر «سوريل» (٦) على كل الفئات والاحزاب السياسية (باستثناء الحركات الاشتراكية الماركسية) أي حق او مجال في العمل السياسي ناهيك بالحكم المباشر ، كما أنكر على الرعية ان تجد صالحها في غير ما ترسمه لها الطبقة الحاكمة في الاطار الماركسي الدقيق . ولقد اصر « سوريل » على تسمية شعارات الحركات الاشتراكية الماركسية وقيمها وتواصيها وبرامجها الثورية في مفهوم واحد بل كلمة واحدة هي **« الاسطورة »** ـ أسطورة الاضراب العمالي الشامل بحيث اذا اقتصرت الحركة الاشتراكية على جهد مركز في تحقيق اضراب شامل للعمال المزارعين والكادحات والكادحين فان البنيان السياسي والطبقي المعهود التي لا ترضى عنها الحركة الاشتراكية ستتداعى فورا وتؤول السيادة والسلطان للطبقة المختارة في قيادة الحركة الاشتراكية فتصوغ المجتمع في اصول نهائية من الحق والعدالة والرفاهية والسعادة للجميع .... فتلك الطبقة خالية اصلا (عند سوريل وموسكا) من اخطاء التدبير ومن شتى النقائص التي تولد في بني آدم .

« الاسطورة السياسية »

والذي يعنينا من (اسطورة) « سوريل » هذه ليست قضية الاضراب العمالي الشامل كسلاح للتطوير السياسي . فالاسطورة في قالبها النظري وفي الحانها وتواقيعها المتعددة الاشكال في الحركات الثورية ، عنصر اساسي في أي عمل سياسي ذي صلة بالاجتهاد والاجراء الميكيافيلي . فقد شرح « سوريل » الاسطورة في العمل السياسي فنفى ان تكون صنوا لمثالية الدعوات، ففي المثالية لون من استنتاج عقلي وضعه بعض من تفرغوا لمراقبة المراجع والاحداث المحيطة بهم فسعوا الى استنباط نموذج جميل لما يمكن ان يتطور اليه المجتمع الفاضل . فالمثالية عند « سوريل » مزيج من النظم الخيالية تعكس نواحي جزئية فقط من واقع الحال بحيث يشغل العقول والمشاعر في ايجاد اوجه الشبه بين الواقع المر وبين المرغوب فيه من جميل الاماني فينتج عن ذلك ترقيع في الاصلاح ـ في حين ان الاسطورة كما روج لها « سوريل » تهييء الانفس والسواعد للعمل المباشر في مناخ ثوري يهدم كل شيء لا يتفق مع المفهوم الاشتراكي للاشياء والاحداث . بحيث لا تجد الرعية مجالا لاستذكار دقائق الدعوات والبرامج تاركة مسؤولية ذلك لقيادة الحركة تستنبط لها ما هو في البرنامج وما فوق البرنامج او ما دونه اذا لزم الامر . فالاسطورة السياسية عند « سوريل » لا يحدها اطار معين خارج المفهوم الثوري وما يتطلبه من حالات الطوارىء مما لا يسمح بترف الايضاح والشروح . والاسطورة عند « سوريل » وعند ائمة الفكر الثوري في كل مكان ، هي تعبير عن العزم على التطوير والتنفيذ ـ عزم يعد بالنصر بالغنيمة من غير ان يكون مسؤولا عن اثبات النتائج الا بالقدر الذي يعين على التعلق بالاسطورة السياسية ـ وطالما ان استمرار المناخ الثوري يعبر في طبيعته عن امعان الفساد القديم في عبثه بشعارات الحركة وبرامجها فان كل من يجادل السلطان او قيادة الحركة في اثبات النتائج لسلوكها السياسي ليس الا معتديا اثيما يضمر نوايا ونزعات رجعية لا تؤمن بحتمية المصير في الاجراء الاشتراكي الثوري وبرامجه واهدافه . ويمضي «سوريل» على هذا الاسلوب في ايضاحه لنظرية العنف والاساطين السياسية فيقول « الناس الذين يعيشون في عالم الاسطورة آمنون من كل قلق ... فأي فشل يصاحب مسعاهم لن يؤثر مطلقا في حتمية النجاح ، فمثل هذا الفشل ظاهرة انتقالية مؤقتة تفسيرها في التدخل الاجنبي والرجعي او في فتور بعض الاتباع في الحركة عن عمق التلامذ على الاسطورة ـ « فاذا جددت التلامذ وبثثت في الناس مزيدا منه فانك واصل حتما الى الاهداف ... »

ووجه التطرف في ميكيافيلية « سوريل » ان اسطورته دعوة سافرة الى الغش مطلية بطابع العنف ومرتكزة الى سيل لا حد له من عمليات التنظيف او التطعيم العقلي يصاحبه تعمد صريح لخلق مناخ ثوري لا يعلم احد مدى عقباه ومنتهاه .

معنى الثورات

والواقع ان هناك حاجة ملحة في حاضر الفكر والسلوك العربي لتحديد معنى « الثورة » ومفهومها في المنطق وفي العمل السياسي والا فان استمرار المناخ الثوري الى اجل غير مسمى سيؤدي حتما الى رسوخ

---

(٥) GAETANO MOSCA : Teorica dei Goveni e Governo Parlamentare.

(٦) GEORGE SOREL : Reflexions sur la violence.

طبائع نفسية واجتماعية على منتهى السوء لمستقبل الاجيال العربية ، ناهيك بفوضى النزعات والتدبير في الساعة الراهنة . فعملية استئصال الجراثيم من الجسم العليل تخضع حتى عند أمهر الاطباء الى حدود مقيدة بالموضع وبالتوقيت الذي في طاقة الجسم العليل استحماله والا فان اعضاء أخرى في ذلك الجسم تتداعى وتموت واعضاء اخرى يعتريها الشلل فتتعطل اداتها ومهمتها الى الابد بحيث لا نفع فيها او في الجسم كله حتى لو زالت جراثيم العلة التي نصب الطبيب نفسه اصلا لمعالجتها .

ففي أوج الثورة الفرنسية مثلا استنبط «روبسبير» تفسيره الخاص لمفهوم الثورة على انها « استبداد الحرية » فتصدى الوجدان الثقافي مسلحا بمنطق التراث اليوناني (٧) فأصر على ان « الثورة » جهد هدفه الحرية لا يداخله طابع الاستبداد في أي حال . وان الحرية مفهوم لا يخضع لقيم اخرى مهما سمت وارتفعت ــ بما فيها شعارات العدالة السياسية والاجتماعية والنزعات الاصيلة والمزيفة التي تمجد السيادة القومية ومجد الامة ومظاهر الرقي والعمران ــ فتلك الشعارات والنزعات لا تجد مجالها الفعلي القويم الا حين تستتب الحرية خالية من أي قيد او شرط .

والحرية في مفهومها العريق وضع سياسي ــ اجتماعي يتكافل فيه المواطنون (كما عند قدماء الاغريق) (٨) على ان لا يضبط احوالهم حكم موروث او مغتصب او نظام يعطي للسلطان مزايا خارج ما تسمح به حاجات الادارة كما يجب أن يمارسها من يختاره الناس موظفا يوضب حاجاتهم ويخضع لما تواضع المواطنون عليه من أوجه السلوك والمعاش . فاذا استدعت الحاجة تصحيح أي اعوجاج في سلوك الموظف فليكن ذلك في اجماع الرأي لا في فوضى التدبير او شر التآمر . وطالما ان الناس في مباذلهم يعيشون اضعاف ما يعيشون في فضائلهم (كما قال القاضي بن يوسف البغدادي) فان هذا المفهوم التقليدي للحرية لا مفر من ان يتعرض للعبث والسوء والاذى فيستدعي جهدا يصر على « تحرير » الوضع من الشوائب التي المت به . فالتحرير اذن جهد هدفه الحرية . والتحرير ليس غاية في حد ذاتها وليس بديلا عن الحرية . فالتحرير عمل سلبي بمعنى انه يحاول ان « يسلب » العابثين بدعائم الحرية طاقتهم على العبث . فأي حركة تحرير لا تسرع في توطيد الحرية خالية من أي التزام او شعار او برنامج فانها حركة مآلها الاستئثار بالسلطان وصراع على الفوز والتركز فيه . ومن هنا تبرز اهمية التراث الميكيافيلي في تغذية حركات « التحرر » بالمعاول الفكرية والاجرائية للتمكن من السلطان والاستئثار به على اعتبار ان الحرية ترف لا يصح ان يترك التصرف به في يد الجماعة القومية من غير « امير » حازم او «طبقة مختارة» بشتى « الاساطير » واجراآت « العنف » وتجنيد الولاء وتفمص الصالح العام عن ايمان عميق او في رياء يتحكم في المشاعر والافئدة او يبث في الناس قناعة مقبولة تعطل (الا على الوجدان الثقافي) دقة السؤال بينهم عن المدى والحدود التي تقف عندها موجة « التحرر » لتترك الحرية وشأنها كحجر الزاوية لكل وجه في السلوك والمعاش الانساني .

فمن الطبيعي اذن ان تتجاهل المدارس الميكيافيلية تجاهلا كليا دور الديمقراطية الاصيلة في شتى ما استنبطه الميكيافيليون من حذق وتدبير وشعار . وذلك لان الديمقراطية تفترض سلامة الحرية كحارس لحاجات الناس ومركب عضوي رئيسي في كيمياء السلوك الانساني ، منه تتفرع مختلف الوان الاجتهاد الفردي والمشترك لمن وظفتهم الامة وكلاء عنها في ادارة المرافق المعاشية التي تضبط تسيار الحياة اليومية . ومثل هذا الاجتهاد لا يحق له ان يدعى الاثرة في اختيار ما هو صالح او طالح في حياة الناس الا اذا كلفوه بذلك طوعا واقتناعا . ومثل هذه القناعة لا تتم الا في مناخ تسود فيه الحرية مجردة من أي شائبة حتى يصح للناس سلامة الادراك لما هو خير لهم . ودور الوجدان الثقافي في مثل هذا المناخ الحر دور لا حد لقدرته في المسؤولية القومية ، فاذا تعطل هذا الوجدان لكسل او لعي في الادراك فان مولد الحكم المطلق نتيجة حتمية لا ينفع في تبريرها اي شعار او برنامج او هدف او نبوءة صادقة او خرقاء . فالجماعة التي تصفح عن النظرة والسلوك الميكيافيلي على اعتبار انها شر لا بد منه في الحاح الازمات على علاج ناجز وسريع ، جماعة تقوض بيدها (لا بيد عمرو) الركن الاساسي لمعنى الحياة ومعنى التحرر ومعنى الرفعة والمنازل والكرامات في السلوك الانساني .

وحملة الميكيافيليين على حرية الاختيار الديمقراطي حملة مركزة . فقد تخصص صديق وزميل لـ «سوريل» في تحليل نقائص القيم الديمقراطية في السلوك السياسي من الزاوية الميكيافيلية . فوضع « روبرت ميشيل » (١٨٧٦ ــ ١٩٣٦) الفيته المعروفة عن الاحزاب السياسية في الديمقراطية البرلمانية المعاصرة على ضوء علم الاجتماع (٩) . ودراسة « ميشيل » هذه عاصرت الفترة التي راجت فيها الآراء الماركسية والفاشية في اوروبا الوسطى والغربية في الفترة السابقة واللاحقة مباشرة للثورة الشيوعية في روسيا والفاشية في ايطاليا . وكان محور النقد الماركسي ــ الفاشي للمجتمعات الديمقراطية يتركز في ابراز مدى بأس المصالح الاقتصادية (المحلية والاجنبية) الرأسمالية في السيطرة على السلوك والمقدرات السياسية للراعي والرعية معا ، وان لا سبيل الى تطور المجتمع بغير « الاسطورة » الماركسية او الفاشية و « العنف » الثوري موجها قبل كل شيء نحو المصالح الرأسمالية وزبانيتها من الرجعيين والمرتزقين .

القواعد الحزبية

و « ميشيل » في ثقافته الالمانية المغرمة بالدقة والتمحيص لم يتقبل التفسير الماركسي التقليدي على انه المنطق الوحيد الذي يجادل الديمقراطية كأسلوب صالح للعمل السياسي . فأصر « ميشيل » على ان في طبيعة الجماعة الانسانية عوامل عديدة متشعبة الجذور والعقد تتجاوز العامل المادي الرأسمالي ــ فهناك العصبية القبلية

---

(٧) كتاب حديث صدر قبل بضعة اسابيع .
H. BRANDT : On Revolution

(٨) في تراث « هيدوموتس » راجع مثلا :
HERODOTUS : The Persian Wars

(٩) ROBERT MICHELS · Zur Sozicologie des Parteiwesens in der Modernen Dimoratie 1911. والكتاب مترجم بالانجليزية بعنوان الاحزاب السياسية Political Parties

والصلات الدينية والتكوين الاجتماعي وتعلق الناس بمدارج ومنازل يولدون فيها في الريف والحضر وفي شتى المهن واسباب المعاش مما يجعل السلم الاجتماعي للمصالح والنزعات الفردية والمشتركة سلما قد لا يريد الكثيرون ان يصلوا الى قمته ـ اما لعجز في الاستعداد او لهواهم الفردي الخاص في ان يكونوا «الاول في قريتهم لا الثاني في العاصمة» . فهذه العوامل النفسية والاهواء والمشارب الخاصة تصنف الناس في اوضاع مستقلة تماما عن المصالح الاقتصادية الرأسمالية كبرت أم صغرت. ومن هذه العوامل الاصيلة في التكوين الاجتماعي للناس في كل زمان ومكان تبرز نزعات للعمل السياسي (فالانسان مخلوق سياسي كما قال ارسطاطاليس) على اسس متعددة متباينة منها الولاء القبلي او الريفي او الحضري او المهني ومختلف درجات الوعي والادراك والمشارب والاهواء بين الجماعة الواحدة كاختلاف النبات في تباين التربة والمناخ. وهذه النزعات والمدارج تصر على التفاعل في السلوك السياسي للجماعة غير عابئة بالقوالب العقائدية او الاقتصادية او الاساطير وشتى الوان التدبير الميكيافيلية. ومن هذه القاعدة المنطقية يتسرب «ميشيل» الى ميكيافيليته فيصر على ان التباين في المدارج والنزعات والاهواء بين الناس لا يعني حرية الاختيار الفردي حتى لو توفر للناس مثل هذا الاختيار. و «ميشيل» لا يجد فارقا جوهريا في شعارات الماركسيين والاشتراكيين والرأسماليين والملكيين وغيرهم في مسعاهم للاستئثار بالسلطان وفي صياغة قيمهم واهدافهم السياسية في قالب اخلاقي يبشر بالخير والرفعة والسعادة ـ لا لفئة مختارة وانما للشعب باسره على اعتبار ان تلك القيم والشعارات تعبير حاذق لما هو في خواطر المجموعة وامانيها. ومن هنا تطور الغرام باستعمال «الديمقراطية» قاسما مشتركا اعظم في شعارات الحركات والدعوات السياسية ـ يمينية ام يسارية، سلمية الاجراء ام ثورية الطابع والتدبير. ويصر «ميشيل» على ان التمسح بالحرية والديمقراطية والعدالة ومشتقاتها جميعا هو اليوم ابرز الوان النفاق في صنعة السياسيين ـ وهي اصلا صراع على الاستئثار بالقوة والسلطان الحكم. و «ميشيل» حريص على ان يعدل التراث الميكيافيلي ويحوره بحيث يتماشى مع هذا اللون الجديد من النفاق المهني في الصراع على الحكم. وقد اختص «ميشيل» بالالتفات الى عاملين رئيسيين هما «التكتل الحزبي» و «مقومات الزعامة». فالتكتل الحزبي عند ميشيل لون من الحكم الذاتي. فاذا تجاوب فرد مع اخر او اخرين في استيائهم لمجرى السلوك وتوافقهم على التحكم فيه او استبداله فهذا التجاوب والتوافق «حزبية» سواء صاغوا لها شعار التكتل والدعوة والتدبير ام لم يصوغوا. فهم يمارسون في تجانس ارائهم واهدافهم وعواطفهم لونا من الحكم الذاتي في ابسط مفاهيمه. وكلما اتسعت حلقة التجاوب في العدد والعدة كلما استدعت الحاجة الى استنباط قواعد للسلوك لتنمية هذا الحكم الذاتي في اطار القيم المشتركة ـ ومن هنا تنشأ الصبغة الرسمية للاحزاب. فاذا تركت للناس حرية التجاوب والتكافل (خارج ما سنه الامير او الطبقة الحاكمة في المفهوم الميكيافيلي من شعارات وولاء) فان اصول الحكم الذاتي ستدفع اولئك الناس الى اجراء ديمقراطي يبت في الامور باغلبية الاصوات مما لا نفع فيه لاي نظام يستعجل التطور في قالب ميكيافيلي مرسوم لا يسمح بفذلكة الاجتهاد خارج المتن العقائدي لمن في يدهم زمام الحكم او اولئك الذين يوضبون الامر للاستئثار به. و «ميشيل» ينفي عن الاغلبية حتى داخل الحزب الممتلك للسلطان حق البت في الامور اذا توفرت في الحزب طائفة مختارة اكثر كفاءة ورشدا وايمانا بقيم الحزب وبرنامجه واكثر دهاء في تطبيقها وتفسير الغازها وفهم ما في الضمير السياسي للحركات والدعوات، مما لاتستوعبه الشعارات الرسمية للحزب وهي على ما هي عليه من غموض وتعميم لفت «دانتي» اليه النظر مبكرا. فمن الهراء عند «ميشيل» ان يعتبر الاجراء الديمقراطي المألوف في حرية البت في الامور والقضايا لاغلبية الاصوات على انه اجراء صالح للعمل السياسي. فلا بد ان تحدد قيادة الحزب او الحركة ما يجوز وما لا يجوز تركه عرضة لحرية التفسير والاختيار من جانب الغلبة الساحقة من الاتباع خارج «الاسطورة» السياسية التي جعلها الحزب او الحركة انجيلا لها. وسواء لجأت قيادة الحزب «او الطبقة المختارة او الامير» الى بليغ الكلام وحذق الاقناع او الى الوعد والوعيد في الحيلولة بين حرية الاختيار خارج انجيلها، فان النتيجة واحدة من حيث انها تعطل على الوجدان نزعته الى فحص الامور في غير منظار موحد المقدسة واللون. ومن هنا تنشأ في قيادة الحزب بارزتان خطيرتان احداهما النفور من اي جدل او سفسطة خارج الاطار الفكري والاجرائي الدقيق الذي رسمته للرعية، وثانيهما مولد سلطة خارقة لفئة خاصة في قيادة الحزب تميز نفسها عن بقية الفئات في التكوين الهرمي للحزب، على اسلوب طبقي لا يقل في اعتداده بالنفس وبالمزايا المكتسبة عن اي تكوين اقطاعي عتيق. وكلا البادرتين تمعن في الرسوخ والتمكن كلما طال امد المناخ الثوري في جو الأزمات القومية. فهناك عشرات من المبررات لاستمرار السلطات الاستثنائية في هرم القيادة الحزبية او العقائدية او غيرها ـ منها اتساع العدد في الاتباع والانصار ومولد الطوارىء في عجلة التدبير الثوري وفي حدود الطاقة البشرية على ان تتحمل مشاكل الشذوذ في السلوك الجماعي ـ مشاكل الرعية ازاء مسؤولية الراعي او ما يعتقد انها مسؤوليته. فمن الامور في المناخ الثوري مالا يتحمل البطء في التوضيب او الشورى بين الاتباع، ومن التدابير والاجراءات مالا يسمح او يرضى عن ديمقراطية التداول والشيوع او يتحمل ضياع الوقت في الاقناع والشروح الذي يصاحب الحكم الذاتي والسلوك الديمقراطي في الجدل والشورى. ومن ثم فلا مفر من ان ترسخ في الزعامة الفردية (او القيادة الجماعية او الطبقة الحاكمة او أي متفرعات الفكر المكيافيلي) نفور عميق من حرية الجدل نبيها كان ام بليدا. وكلما مضى المناخ الثوري في هيمنته على الوضع العام وعلى «روحانية» الاهداف كلما سهل على الحكم الميكيافيلي ان يتفادى حرج التفسير لما قد يصيبه من شطط او يرتكبه من «عنف» او خطأ في التجارب او المغامرات التي تتقمص عادة اثوابا قومية طاهرة.

الزعامة الفردية

وفي ميكيافيلية «ميشيل» التفات دقيق لقضية «الزعامة الفردية» كعامل اساسي في نجاح الدعوات. فاذا انحصرت تلك الزعامة في شخص فانه يصبح علما على

كل مايطيب للحركة ترويجه من « الاساطير » على طريقة « سوريل » او الحزم والعزم والوعد والوعيد على طريقة « ميكافيلي » او الرشاد والنبوة على طريقة « موسكا » .

و « ميشيل » في عمق ثقافته يقترح الاعتدال في صياغة الهالة الربانية التي تناط بالزعامة الفردية حتى اذا داهم الحركة او العهد غش او نكسة او فشل كفر الناس بتلك الهالة مما يستدعي انهيار الدعائم كلها للحركة او العهد . وكان « ميشيل » من اوائل الداعين لفكرة «القيادة الجماعية » في الحركات السياسية كتحوير مفتعل لفكرة « الطبقة الحاكمة » التي اصر عليها « موسكا » والتي هي بدورها مشتقة من الفية الحكم المطلق في « امير » الامام الاول ميكيافيلي . والواقع ان ميكيافيلي نفسه دعا الى التحفظ الشديد في اعتبار « القاعدة الشعبية » لحكم الزعيم الحازم سنداً قويما وعمادا اصيلا لضمان الحكم وتنفيذ برامجه واساطيره . فقد وجد ميكيافيلي ان الغرام الشعبي بالزعامة الفردية موطن ضعف خطير في الحركات السياسية فحذر الامير من اذكائها بين الناس واشار ميكيافيلي بالثناء على اسلوب قدماء الرومان في تفادي الاخذ الجدي بمشاعر الشعب « لان مشاعر الرعية لا تستقر على حال » .

وقد تطرق « ميشيل » الى الشعار التقليدي في اكثر الحركات والدعوات السياسية والعقائدية التي تنصب من نفسها وصيا على الامة ـ شعار « الحكم من الشعب للشعب » فقال ان الطرف الثاني في هذا النداء هراء لا اصل له في طبيعة تلك الحركات ولا يجب ان يكون . فتحت معظم انظمة الحكم لا تضبط الرعية الراعي وانما العكس بالعكس . فالرعية مادة خام يصوغها سلطان الحكم كيف شاء ، والحاكم حريص على الاستئثار بالسلطان يقنع نفسه في شتى المبررات بانه يتقمص الصالح العام . والذي يجادل السلطان في الخير والشر ليس الرعية (او الشعب أو الجماهير ـ سمها ما شئت) وانما وجدان المعرفة ودقة الضمير وصفعة العلم حين تتوفر له حرية النقاش . ولندع « ميشيل » يصف بعقليته الميكيافيلية « حتمية المصير » لشؤون الرعية فيقول :

« لا مفر للحكم الفردي من ان يسود ـ فطبيعة التكوين الاجتماعي والنفسي للجماعة الانسانية لاتسمح بديمقراطية الحكم . ومهما الم بالجماعة من تطور حضري ومهما الم بالعلاقات الاقتصادية بين الناس من تعادل او تباين ـ سواء أبقيت في النطاق الحر ام في اشتراكية النظام ـ فان ذلك التكوين الاجتماعي والنفسي سيظل حيا يرزق لاينفع له سوى سيادة الحكم الحازم . وحتى الثورات الاشتراكية لن تؤثر كثيرا في طبيعة ذلك التكوين . فقد يظفر الاشتراكيون بسيادة الحكم ولكن هذا الظفر لا يعني اكثر من انتصار سياسي للشعار الاشتراكي . وبمجرد الفوز بالسلطان فان جزءا بليغا من مضمون الشعارات والاهداف سيزول من تلقاء نفسه . فلا الرعية قادرة على تفسير الغموض والابهام في فلسفة الشعارات والبرامج ولا هي راغبة في ان تتأبط الشر لتفنيد مدى انطباقه على مجرى الحياة والمصالح (فذلك من واجبات الوجدان العلمي وعبء ما يحمله من احساس ومعرفة فذلك الوجدان اما مجند او مقطوع في كنف السلطان او هو مقهور لايجد مجاله في حرية التعبير والاختيار) . فالثورة الاشتراكية ككل الحركات والدعوات عمل سياسي . والوازع الاصلي للعمل السياسي هو ان يفوز بالقوة السياسية (بما فيها الجيش) ويستأثر بها ويتمسك باهدابها توسيعا وتركيزا تبعا لكفاءة الزعامة او القواعد الحزبية التي مكنته من الوصول الى السلطان. فالتيارات التي تعارض ذلك ستكون اشبه بموجات البحر تتحطم على صخور الحزم والوعد والوعيد من جانب السلطان الظافر . »

كذا تحتسب النظرة الميكيافيلية مدارج الوعي والطاقة والشعور لدى الناس ازاء حزم السلطان المنتصر وحذقه ودهائه خصوصا حين تعبر شعاراته وبرامجه عن جميل الاماني وبليغ الاساطير السياسية « من الشعب للشعب » وخصوصا في جو النكسات وتأهب المشاغر للمضي في المناخ الثوري كفضيلة تقصر الابعاد في السباق القومي مع الزمن .

الوجدان يتساءل ...

والذي يجب ان يتساءل عنه الوجدان الثقافي للذين لايبغون علوا او فسادا في الارض في معرض استيعابهم لتسيار السلوك والاحداث في دنياهم ، تساؤل بسيط في طابعه دقيق في مضمونه، تساؤل لا يتجاوز المقارنة والموازنة بين حاضر اهله وبين تجارب امم اخرى آمنت بجمال السياسة الميكيافيلية في مناخ الثورة على اكداس من السوء والشرور ـ مناخ الهب مشاعر الناس ورسم لهم آمالا لا حد لها في العزة والمجد والخير العميم فسرعان مادب في طبيعة التفكير والسلوك الميكيافيلي ماهو مجبول عليه من تناقض وما هو رابض فيه من قلق مرده في تحكيم السيف فيصلا بين الفئات التي تختار نفسها وصيا على الشعائر وحارسا للسراط السياسي في اجتهاد يتقمص الصالح العام من غير ان يوفر لرضوان العقل وسعة العلم والتجارب للوجدان الثقافي في الامة (وهو المرفأ الامين لشطط السلوك القومي) ديمقراطية الشورى وحرية النقاش ـ كما يجب أن تتوفر اذا آنست حركات الاصلاح ان بضاعتها ليست بحاجة الى شوكة السيف وبطش السلطان وشتى اسواره وقيوده ، لان تلك البضاعة تتقمص حقا مصلحة الامة مما يجعل حرية النقاش لها بين حفظة العلم والمواهب والتحصيل امرا مرغوبا فيه لا خطرا تتوجس من ذيوله النظرة الميكيافيلية للاشياء .

ووجه الخطورة في عشق الافئدة العربية للاجراء الميكيافيلي في الحكم والتدبير ان همينة المناخ الثوري على الجو العربي قد اولد سيلا لا حد له من التجارب الميكيافيلية العنيفة المتلاحقة التي اوشكت ان تستنفد الحصيلة الضئيلة من الوجدان الثقافي ومن المواهب والكفاءات في شتى اوجه المصلحة القومية ـ كفاءات جندها هذا العهد او ذاك وسرعان ما طاحت رؤوسها عندما تم الظفر لفئات ميكيافيلية اخرى في اجراءات «العنف» و « اساطير » العقائد الحتمية ـ خصوصا وان السلوك الميكيافيلي في محاربته لحرية الوجدان الثقافي في ان يلتزم بعجلة الطوارىء ودلال الاحداث قد ترك الامة معطلة في ذخيرتها من الحكمة وحرية الجهر بها الا من الذين تتلمذوا على العهود الميكيافيلية وهم لا نفع فيهم حين ينتهي اجل العهد الذي ساروا في فلكه مخيرين او مسيرين

وما اكثر تبدل العهود في حاضر السلوك العربي !

فاذا كان المبرر الرئيسي لصلاح السلوك الميكيافيلي هو مواجهة الشر اليهودي الذي يعرض كيان العرب الى السوء والاذى في الحقوق والمصالح والكرامات ، فان هذا الخصم اللدود للانبعاث العربي يدرك ان مآل الميكيافيلية العربية فوضى وانهيار مما يجعل تحدي العرب للشر اليهودي (مستطيعا بنفسه وبارحامه وانصاره الاقوياء) نفخة في الرماد تعمي بصائر اهلها قبل ان تخيف الخصوم.

ولقد جاء ردح من الزمن عاصره اكثرنا قبل جيل او جيلين كانت الميكيافيلية الالمانية والايطالية فيه رمزا حيا لكل ما في سياسة الحزم والعزم والتدبير والوعد والوعيد من بهاء اسر انفس كثير من الناس بما فيهم عرب الشرق الاوسط. وكانت جولات النازية والفاشية وقواعدها الشعبية واستعراضاتها العسكرية وشعاراتها السياسية والاجتماعية في منتهى الاتقان والروعة ناقشت عمالقة العالم في الشرق والغرب على مصالح ومطامع حققت للميكيافيليين اول الامر الوانا من النصر ـ ولكن سرعان ما كشفت (في اقل من جيلين) ما في طبيعة السلوك الميكيافيلي من شطط وفساد وقصور جذري كما هو معروف للتحصيل الدقيق في تاريخ الامم وتسيار السلوك الانساني ـ ، فتألب عليها جحافل الخصوم في غير رحمة او هوادة.

... أين المصير ؟

ونخشى ان يكون مصير هذه الطفرة العربية الشائكة في هذا المناخ الثوري المزمن هيمنة التفكير والاجراء الميكيافيلي الى امد طويل وما في ذلك من النمو المرتقب لجراثيم الانهيار والضعف، في الأخلاق والضمائر وفي التدبير والسلوك مما لا قبل لشوكة السيف بتصحيحه، الامر الذي يسهل على الخصوم ما هو مرتقب منهم من تألب علينا وبطش بنا .

فاذا كان المثل الاعلى للنزعة الميكيافيلية في دنيا العرب اليوم هو تجربة السوفييت او « تيتو » او اي خليط عجيب من الماركسية والفاشية والقوميات فان مثل تلك التجربة تكتنفها نفس الشرور ومواطن الضعف والانهيار التي استترت في ميكيافيلية النازيين والفاشيين حتى في اوج عظمتهم فلم تدم جيلا او جيلين حتى انتحرت او ارغمت على الانتحار .

فمن الواجب الوجداني ومن الحق الاخلاقي لحفظة العلم والتحصيل ومن صميم المسؤولية والمصلحة القومية في خضم الطوارىء وفي استتباب النظم ان يصر ذلك الوجدان على حرية النقاش لازالة هذا المناخ الثوري المخيف الذي يكتنف العقل والمشاعر والسلوك . فهدف « التحرير » او « التحرر » او اي مترادف اخر في قاموس الاجتهاد العقائدي في دنيا العرب اليوم يجب ان يكون في توطيد **الحرية** خالية من شروط التقيد بأي قالب رسمي من الشعارات والدعوات والتدابير . والحرية ، وخصوصا للوجدان الثقافي ، كانت على مدى تاريخ النضال والتطور والرقي الانساني حجر الزاوية لاي بعث لاصيل، لا تعبأ بأية حذلقة تقيد انطلاقها باسم الشعب او العقيدة او باسم الفلاح والمزارع او اي مبرر تستنبطه الشعارات في صراع العمل السياسي على الاستئثار بالسلطان .

(لوزان) **عمر حليق**

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السام

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للماساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت